مصانع الشام (١)

« منذ عرف التاريخ »

ان قطراً كهذا القطر البديع ، تعاقب الحكم عليه الحثيون والمصريون والبابليون والاشوريون والفرس والفينيقيون والاسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك والتتر والجركس ، وأعجب الفاتحون بخيراته ، واغتبطوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه الممتاز بين الاقطار والقارات ، فجعلوه محط رحالهم ، ومجازاً الى فتوحهم ، لا يستغرب منه اذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق ، وجودة الابداع ، وعظمة الباني . ان الشعوب التي انشأت مصانع البتراء « وادي موسى » وجرش وعمان ومادبا وبعلبك وتدمر والرقة وأفاميا ودمشق وحلب والقدس كانت ذات معرفة بالهندسة لا تقل عن اهل هذا العصر بها ، لان ما شادوه صارع الايام وصرعها ، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتحريق بايدي المخربين من الظالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

يتناول بحثنا الآن آثار الشام قبل الاسلام وبعده . ونعني بالشام ما عرفه العرب من البلاد الممتدة من عريش مصر الى نهر الفرات ومن سفوح جبال طوروس او الدروب الى البادية . وتنقسم هذه المصانع قسمين : مدني وديني فالمدني كالقلاع والحصون والابراج والمناور والمراصد والقصور والجسور والسكور والاقنية والموانئ والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والديني كالمعابد والبيع والاديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والربط والخانقاهات والملاجئ وما شاكلها . نتكلم على الهندسة المتبعة في هذا القطر السعيد اجمالاً بحسب ما انتهى الينا من كتابات العرب والافرنج . ولا نستنتج الاحيث يصح الاستنتاج ، وندعم القول بنصوص العلماء من اهل

---

(١) أُلقيت في ردهة المجمع العلمي يوم ٢٩ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

الاخصاء في العاديات والبناء ، ونقف عند حد ما رسموه لانهم المرجع وعلى كلامهم الفتوى ·

لم يحدثنا التاريخ والحثيون والاسرائيليون من أقدم الشعوب السورية انه كان لهاتين الامتين هندسة خاصة ، بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الاشوريين اصول بنائهم وليس فيه ما هو خارق للعادة في اشكاله ووضعه ، بل هو محرف عن الطراز الاشوري تحريفاً مهزءاً · ولم يتمكن الاثريون الى اليوم من العثور على عاديات حثية حقيقية ليقفوا حق الوقوف على اصول هندستهم وبنائهم · وما اكتشف من هذا القبيل من الصور النصفية وغيرها لا ينمّ عن ذوق سليم ولا عن إبداع في حسن الهندسة ·

ولقد انشأ الحثيون قلعة لهم على الفرات في كركميش (جرابلس) بقيت حسكة في حلق نينوى الى نحو سنة ٧١٠ ق · م حتى استولى الاشوريون عليها وكانت هندسة مصانعهم على مثال مصانع الاشوريين والبابليين مقتبسة اقتباساً رديئاً لا تخلو من جفاء وسذاجة ·

وبنو اسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطلعهم ، سوى آثار ضئيلة ساروا في صنعها على تقليد الاشوريين والمصريين ، وقلدوا المصريين في الاكثر لقرب فلسطين من مصر ، بل لان مصر استولت زمناً على فلسطين · وأهم ما بقي من آثارهم معبدهم في القدس او معبد سليمان الذي جمع اليه الصناع والمهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ ق · م وقد حرق هذا المعبد فرم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ ق · م ولما عاد اليهود بعد اثنتين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الاول في الجملة وكانت دثرت محاسنه الاولى ثم وقع ترميمه في ادوار مختلفة ولم يُصب هذا المعبد باذىً على عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المقدوني في الشام ولا في زمن بومبيوس الروماني لانه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ان لا يقاتلوا الامم التي يدوخونها على اربابها · وربما اقتبسوا من غلبهم على امرهم عباداتهم من غير نكير ·

وسع هيرودوس ملك اليهود الذي نصبه الرومان معبد سليمان ، وانتهى على عهد

نيرون ، وكان عمل فيه الف كاهن والوف من العملة دهراً طويلاً · وقد قيل ان سليمان خزن من غنائمه لبناء معبده مئة الف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة قُدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ماعدا الحديد والنحاس والخشب فكمل بناؤه سنة ١٠٠٥ ق · م وكان فخر أورشليم واجمل بناء في العالم · وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري اي العمد فادار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة الى ان خربه ملك بابل · والهيكل الذي رممه هيرودوس في محل الحرم الشريف تحيط به عدة دور منها دار الامم وهي الدار الخارجية ثم دار النساء ثم دار اسرائيل ثم دار الكهنة ثم الهيكل · وهدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد وكان غاصاً بالخشب الثمين الذي جيء به من ارز لبنان وغيره ومموهاً بالذهب والفضة ومحلىً بالعاج والاحجار الكريمة وفيه من الاواني الثمينة والمدى والاحواض وادوات البيوت ما صحّ ان يعدّ خلاصة علم الفينيقيين بالصنائع والفنون النفيسة · والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل ولا غرو فمدينة صور مسقط رأس أقليدس المهندس كما ان دمشق مسقط رأس بولودر المهندس الذي اقام عمود تراجان في رومية وبنى جسراً هائلاً على الدانوب (الطونة) · هذا مع انه لم يشتهر الفينيقيون بانهم عنوا بالبناء والهندسة عنايتهم بالربح والكسب وارتياد القاصية ، وكانوا كالاسرائيليين والكنعانيين والحثيين ينقلون هندسة مصانعهم عن الاشوريين والمصريين · ولقد اعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب التجارية التي اقامها الفينيقيون في شواطئ يونان وايطاليا وصقلية وغاليا وابيريا وافريقية ، بيد ان هذا الشعب لم يخلف من آثار مدنيته ادنى ما خلفته الشعوب القديمة · وربما كان الباقي منها بل ما ثبت قيامه على عهد حضارتهم ، اقل مما خلفته تدمر والبتراء · ولم يثبت ان بقي للفينيقيين معبد من معابدهم الى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ ·

اما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها فان الباقي من اساس حصن صور الذي اعجز اقتحامه قدماء الفاتحين كسراغون وبخنصر والاسكندر لا يدل

على كبير امر ، وقد بنى الاسكندر بين البر والجزيرة فيهـا سدّه الغريب ، وكان بناء صور الى عصر ابن بطوطة « ليس في الدنيا اعجب واغرب شأناً منه » وقال ابن جبير : انه يضرب المثل بحصانتها وذلك انهـا راجعة الى بابين احدهما في البر والآخر في البحر وهو بحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يفضى اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب ، اما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص .

ولا يزال سور باتياس بين طرطوس واللاذقية قائماً ولكن لا يعرف اذا كان من صنع الفينيقيين او البلاسجيين لانه اشبه بعمل البلاسجيين سكان ايطاليا و يونان القدماء . وهكذا يقال في اسوار بيروت وصيدا وجزيرة ارواد وعمريت ومعبد هذه على رأي رنان اقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي اما قبور الفينيقيين فهي اهم ما اكتشفت في بلادهم ، و كلها تقريباً نقرت في الصخر وهي مثلها في بلاد يهوذا والعرب ، اي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها التواويس لأسرة برأسها . والقبور التي ظهرت في عمريت هي اهم ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما التواويس الاربعة التي وجدت في هذه المدينة ولا تزال محفوظة في متحف الاستانة .

قلنا ان المصريين والاشوريين ادخلوا ايام استيلائهم على فينيقية عاداتهم واصول هندستهم ومصانعهم وكل ما هو من خصائص مدنيتهم ، فكانوا اساتذة الفينيقيين ولكن هؤلاء لم يحسنوا التقليد ، وعلى عهد الاسكندر فقط دخل في البلاد روح جديد في البناء اي اصول الهندسة اليونانية .

ولقد بحث الاثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الاكثر وامتدوا في حفرياتهم الى بلاد العرب للعثور على مدنية يعتدّ بها سبقت الرومان واليونان ، وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة . وقد تبين لهم ان البيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال او الثوي وهو المكان المعدّ للضيف « السلاملك » ودائرة الحريم شأن قصور الشرق الاسلامي لهذا العهد . وما قصر هركان في عراق

الامير ، وحصون القدس ، و برج انطونيا ، الا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية . ونقل في فلسطين وشمالي غربي بلاد العرب القبور التي يرد عهدها الى الزمن الذي يسبق العصر اليوناني . وقبور مدائن صالح التي نحتت في الصخر ، لا يستدل منها الا انها مثال من امثلة البناء الاشوري . وقد اختلفت الظنون في هذا الشأن والاثريون يوالون حفرياتهم ليكشفوا شيئاً يستدلون منه على مدنية اقدم امة نزلت الارض المقدسة .

* * *

وأقيمت عدة انصاب في الشام لملوك الرومان منها ما عثر عليه الاثريون فقد ذكر وادنكتون كتابة وجدها في السويداء كأنها كتبت تحت نصب اقيم لاحد ملوك الرومان فيه « للملك اليوس قيصر ادريانوس انطونينوس بيوس العاهل » ووجد مع كتابة في قرية ام الجمال في حوران كتب فيها « للعاهل القيصر مرقس اورليوس انطونينوس اغسطس قاهر الارمن والبرتيين » . ولهذا القيصر كتابة أخرى في سهوة الخضر من جبل حوران وأخرى في الشهبة المسماة فيليبولي نسبة الى الملك فيليبس العربي ووجد في السويداء ايضاً كتابة يونانية مؤذنة باقامة اثر تكرمة للملك كعمود اقامه له دوميتيوس بروكستر والي العربية ذكرى جلب الماء الى المدينة وضواحيها سنة ١٨٧ ووجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير كتابة تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتيموس ساويروس برتينكس اغسطس اقام هذا النصب بومبابوس اينجيوس نذراً للمشتري .

وبعد فان البحث في مصانع الشام وحدها يحتاج الى مجلد قد يضطر مؤلفه الى ان يرمي الكلام على عواهنه لصعوبة الحكم على كل اثر بعينه ونسبة كل بناء الى الامة التي اقامته وكل واحدة منها تركت على الاغلب اثراً مخلداً متلداً تفاخر به . فالطرق الرومانية التي أنشئت من القدس الى بلاد النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها وطريق مادبا الى البتراء والعقبة حتى البحر الاحمر وطريق جرش — وادي موسى والطريق المبلط شرقي صرخد الممتد الى العراق وكان يسمى بالرصيف هي من الآثار المهمة كالمعسكر

الروماني في أفرح فرب معان وآثار قنوات وشهبة وسالة ودامية العليا ولبن .

عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها ومنها الهياكل الجليلة والدور الفخمة والاندية والمجالس والقصور والحمامات والمسارح والمدافن والمسلات وقد رأى فيها دومازفسكي آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية والسورية . واهل البتراء عرب من النبط شيدوها حوالى القرن السادس ق.م وارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى ان زاحمتها تدمر في القرن الثالث للميلاد . ومن اجل ما في وادي موسى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم نقرت في الصخر وجعلت ثلاث قاعات وبهواً . ومن مفاخرها الملعب العظيم المنحوت في الصخر قطره ١١٧ قدماً وفيه ٣٣ صفاً من المجالس يسع من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ من المتفرجين ولكن الملعب الروماني في عمان اي ربة عمون هو اكبر الملاعب في الشام وهو مركب من ثلاثة مراتب جعلت المرتبة الاولى خمسة صفوف من المقاعد والمرتبة الوسطى اربعة عشر صفاً من المقاعد والمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفاً من المجالس وهو يسع اربعة آلاف ناظر ايضاً . وفي اسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الأسود والنمورة والتماسيح .

ويرد تاريخ ارتقاء جرش الى القرون الاولى للمسيح وتاريخ ابنيتها الى امبراطرة القرنين الاول والثاني وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الاصقاع البعيدة . وكانت جرش من جملة المدن المهمة للغاية من بين مدن بلاد العرب وعمدها الماثلة للعيان ومنها ما بلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة اقدام وملاعبها وهيا كلها وساحاتها وحماماتها تذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض البلاد المهمة التي تولوا الحكم عليها . وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله : « ذكروا ان بدمنة مدينتي عمان وجرش بالشام ملعبين ، فاما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة منقولة ، وبعض بناء ابوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه الدمنة موضع كصورة نصف دائرة مقطوعة بحائط وذلك الحائط به مجلس للملك ، واما النصف المستدير فانه مدرج درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية اوسع من السفلى ، وبين هذه الدرج الدائرة ابواب ومسالك وكل درجة وعليها مرتبة من الناس وكلهم ينظرون الى الملك وهو ينظر اليهم كلهم لا يحجبون عنه ولا يحجب عنهم في ذلك

المجلس وكأنما هو ليوم الحكم العام فقط ، وبالقرب من هذا الملعب ايضاً ملعب وفيه عمد طوال قائمات وفي كل منهن بكرة وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة وكأنما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود الى عمود وفوق ذلك ابنية لاهلها وآثار شاهدة ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك وبباب البريد بدمشق اه» .

وذكر بعض الاثريين ان مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة حتى اصبحت في اوائل النصرانية احدى المدينتين اللتين جمعتا بين تجارة اوربا وآسيا واعني البتراء وتدمر . قال ياقوت واهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليه السلام باكثر مما بيننا وبين سليمان ولكن الناس اذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن . قلنا وكان القدماء يعتقدون ان بعض مدن ساحل سورية بناها الآلهة قال المعري :

وقد كان ارباب الفصاحة كلما ... رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وقال النابغة الذبياني :

الا سليمان اذ قال الاله له ... قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيّس الجن اني قد امرتهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وقد كان من جملة التصاوير التي بتدمر صورة جاريتين من حجارة من بقية صور كانت هناك فمر بها اوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر اوس الذي في البصرة فنظر الى الصورتين فاستحسنها فقال :

فتاتي اهل تدمر خبراني ... ألما تسأما طول القيام

قياماً على غير الحشايا ... على جبل اصم من الرخام

فكم قد مر من عدد الليالي ... لعصركما وعام بعد عام

وانكما على مر الليالي ... لابقى من فروع ابني شمام

وقال محمد بن الحاجب يذكرها :

اتدمر صورتاك هما بقلبي ... غرام ليس يشبهه غرام

افكر فيكما فيطير نومي ... اذا اخذت مضاجعها النيام

القول من اعجب اي شيء اقامها فقد طال القيام
املكتنا قيام الدهر طبعاً فذلك ليس يملكه الانام
كأنهما معاً قرنان قاما أجلها لدى قاض خصام
يمر الدهر يوماً بعد يوم ويمضي عامه يتلوه عام
ومكنها يزيدها جمالاً جمال الدر زينه النظام
وما تعدوها بكتاب دهر سجيته اصطلام واختزام

وقد اقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات اثنين وخمسين حصناً او قلعة يبعد كل منها عن الاخرى ثلاث ساعات ولا شك في ان الحرس الروماني كان في بعضها وبنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عيث البادية وبعد ان فتحت الزباء اوزينب او زنوبيا سلطانة تدمر المشهورة القطر المصري عمرت الابنية التي جلبت اليها الامم من اقطار الارض ولا سيما اليونان وما كان من الامبراطور اوريليانوس الروماني الا ان دمرها سنة ٢٧٢ وخربها و بعثر ابنيتها وقوض هياكلها ودك اسوارها وهدم قلاعها فاصبحت كأن لم تغن بالامس الى ان جاء يوستنيانوس سنة ٥٢٧ فجدد بناء الاخربة وشيد ابنية أخرى فيها وجعل لها سوراً ثم سطت عليها الزلازل كثيراً وما يرى اليوم من الاثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق وما استخرج ولا يزال يستخرج من ارضها من التماثيل والانصاب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة وقد كان لهؤلاء الرومان اغراب كما قال الثعالبي في خرط التماثيل والابداع في عمل النقوش والتصاوير حتى ان مصورهم يصور الانسان ولا يغادر شيئاً الا الروح ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل وبين المتبسم والمستغرب وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ فيركب صورة في صورة وصورة في صورة . او كما وصف الارجاني شبذير وعلى مثل هذه التماثيل يصدق وصفه :

ومن كل انواع الانام مصور شباب وشمط يمرحون وشيب
ومجلس انس يفسح الطرف ملؤه قيان تغني وسطه وشروب

وصرعى وقتلى في قتال عساكر تحول حصون دونهم ودروب
فمن جانب اضحت تصب مدامة ومن جانب اضحت تشب حروب
خليطان هذا للقراع معبس يصول وهذا للسماع طروب
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم يبين لنا يشر بها وقطوب
وكل يعاني شغله غير انه على فمه دون الكلام رقيب
ملاعب فيها الملك رام بطرفه وكل ابن دنيا ان نظرت لعوب
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهم زمان اكول للانام شروب
فلولا مكان الدين قلّ لفقدهم بكاء لنا في اثرهم ونحيب
ملوك اقاموا ما اقاموا اعزة وقد شعبتهم بعد ذاك شعوب
وخيل للرائي ليذكر عهدهم خيال لعمري ان رأيت عجيب
خيال لهم يهدى الى كل امة لقصد اعتبار ان رآه لبيب

* * *

وان بقايا هيكل الشمس او المشتري وهيكل الزهرة وهيكل باخوس ودار المذبح او البهو الكبير الماثلة الى اليوم في قلعة بعلبك لاكبر دليل على ارتقاء فن الهندسة حتى في العصور التي سبقت الرومان واليونان . وفي بعلبك هيكلان كبيران طول اصغرهما ٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً وكان محاطاً باعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها ٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس ٣٢٤ قدماً وكان محاطاً باربعة وخمسين عموداً يبلغ قطر الواحد منها ٧ اقدام وعلوه من قاعدته الى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض الحجارة المبني منها الهيكل ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ قالوا وكانت هياكل بعلبك تضاهي هياكل اليونان بعظمة بنائها ولكنها دونها بالترتيب والزخرفة .

قال شيخ الربوة وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارش اجنحته وفي اربع قرن السقف اربعة اصنام واسماؤها ود وسواع ويغوث ويعوق و بقطع الحجارة حجر رابع للثلاثة التي بالقلعة متروك الى وقتنا هذا والى ما يشاء الله مثال للناس يعني ان من ههنا حملنا الاحجار الثلاثة المبنية بالقلعة — وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الحبلى —

و بالحصن ايضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الارض منها نحو اربعة اذرع ودوره نحو ذراعين واكثر وعددها نحو ستين عمودا وكان على رؤوسها عتبات وفوق العتبات البناء المحكم اهـ وان آثار بعلبك بما فيها من العمد الضخمة ومنها من النوع المعروف بالحجب الذي جلب من بلاد السودان على ما يظهر وما جاء عليها من القرون ولم لفته تدل دلالة صريحة على ان كل هذا من صنع الرومان و بايدي مئات الالوف من العملة المحزبين المستعبدين و كهذا قامت جميع آثار الرومان بارهاق الانسان للانسان ·

و يصدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في اهرام مصر انها عبرت على مر الازمان بل على تمرها صبر الزمان ، فانك اذا تبحرتها وجدت الاذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد افرغت عليها مجهودها والانفس النيرة قد افاضت عليها اشرف ما عندها لها والملكات الهندسية قد اخرجتها الى الفعل مثلاً في غاية احكامها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم ولنطق عن علومهم واذهانهم وتترجم عن سيرهم واخبارهم · او ماقاله في برابي مصر : فالحكاية عن عظمها واتقان صنعتها واحكام صورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع احكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر ·

ومن اجمل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

خرب حارت البرية فيها ... فتنة الناعمين والنظار
معجزات من البناء كبار ... لاناس ملء الزمان كبار
البستها الشموس تفويف در ... وعقيق على رداء نضار
وتحلت من الليالي بثاما ... ت كمنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع ... شربتها ظوامئ الانوار
زدها الشيب حرمة وجلالاً ... توجتها به يد الأعصار
رب شيب اتم حسناً واولى ... واهن العزم صولة الجبار
معبد للاسرار قام ولكن ... صنعه كان اعظم الاسرار
مثل القوم كل شيء عجيب ... فيه تمثيل حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمراً يجـ ... ـنى ولكن بالعقل والابصار

وضروباً من كل زهر انيق ... لم تفتها نضارة الازهار
وشموساً مضيئة وشعاعاً ... باهرات لكنها من حجار
وطيوراً ذواهباً آيبات ... خالدات الغدو والابكار
في جنان معلقات زواه ... بصنوف النجوم والانوار
وأسوداً يخشى التحفز منها ... ويروع السكوت كالتزآر
عابسات الوجوه غير غضاب ... باديات الانياب غير ضواري
في عرانينها دخان مثار ... وبالحاظها سيول شرار
تلك آياتهم وما برحت في ... كل آن روائع الزوار
ضمها كلها بديع نظام ... دق حتى كأنها في انتثار
في مقام للحسن يعبد بعد الـ ... ـعقل فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسماً وابهى ... ما تحج القلوب في الانظار

هذا اجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار وهندستها ومن أهم آثارها انطاكية التي بناها انطيغنوس واكمل زخرفها سلوقس سنة ٣٠٠ ق · م وكان فيها عجائب من الهندسة اليونانية مالم يكتب ليونان ان تعمل مثله في ارضها ولولا ان الزلازل تحيفتها في ادوار مختلفة لكانت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة · وكانت انطاكية عاصمة الشرق ايام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب · ومن يدخل انطاكية و يذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والهياكل والحمامات والاقنية ودور التمثيل يبكي لبلد انفقت الآفات السماوية والارضية على تخريبه ولم يبق من عظمته التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة ·

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية او اليونانية بحيرة قدس او خزان حمص وقناة سلمية وجسر قنوات وآثار سبسطية ومنها مصانع حلب وهي صورة تامة من نشوء الهندسة وقد غنيت هذه المدينة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية والمدنية وما برح معظمها بحاله · ومن أهم ما في شمالي سورية ملعب أفامية (قلعة المضيق) وملعب دفنة وكان فيها معبد ابولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب والطب عند قدماء اليونان ونصب فيها بريا كسيس المهندس الآثيني تمثالاً للرب

اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة وهو قابض بيده على قيثارة وقد صورت صورته على نقود انطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرها من الارباب . ومن اهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يخرقها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمد وهو اليوم مستور مردوم ثامت عليه الدور والحوانيت وكان مقسوماً الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والعجلات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجائين والباب الشرقي اليوم على ماترى هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضه اقل من خمسة وثلاثين متراً .

ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران واحصن مدن باشان ومعقل الرومان شرقي الاردن شاهدة بما كان في تلك المدينة من الفخامة والعظمة وكان طولها داخل السور كما قال بورتو ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً ويحيط بالسور ربض كثير المباني ومحيطها خمسة اميال لها سور عالي الجدران وثيق البنيان وقلعة لااحصن منها في عامة بلاد الشام ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رحبة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء واساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح وركام الانقاض وبيوت الاقدمين وقوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذي صار امبراطوراً وهو من اعالي بصرى والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات واقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة وبعضها ما يصلح ان تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بناها الرومان في هذه الديار وفي غيرها انها متشابهة في مرافقها الا قليلاً ففي كل مدينة ساحة عامة (فوروم) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابتول او معبد المشتري وجونون ومينرفا (ربة الحكمة والفنون والحرب) وكانت في المدن الرومانية بثابة البيع الكاتدرائية في مدن اوربا الحديثة وفيها اسواق ذات نفائد من الحجر وفوارات ومقاسم ماء ذات اقنية لا تزال ترى

الى اليوم آثارها ومراحيض تامة وخاصة واماكن للاستحمام فيها مغاطس باردة وحارة وبيوت للتعريق وقاعات للرياضة والمحادثة وممامش للتنزه وافران وافواس نصر وابواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في اكثرها مصاطبها المدرجة ومساكن خاصة .

ومن أهم الآثار في سورية جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها القديمة ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونيه والثانية القناة الكبرى التي كانت تنقل مياه الجبل الى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة . ومنها هيكل دير القلعة بالقرب من بيت مري في لبنان وهيكل افقا عند منبع نهر ابراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذبيان في سفح جبل صنين وفي لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل بزيزا وناوس في جهات اميون قرب طرابلس وتماثيل كثيرة مبعثرة وفي البترون حصن منيع وملعب . وفي بيروت مسرح ومن قلاعهم قلعة صربا وفقرا ويحمور ومن اجمل حماماتهم حمام شهبة الذي يذكر بخرائبه الفخمة كما قال ري بحامات كاراكالا في رومية وكنيسة السوداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية قال ولا شك انها اجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع بلاد حوران .

* * *

لما انتشرت النصرانية في هذه الديار اخذ من دانوا بها في بناء الكنائس والاديار على اسلوب الابنية القديمة ومالت الهندسة السورية الى السذاجة واجتناب كل زينة زائدة لتؤثر بمتانة البناء المعمول بالحجارة الضخمة وجمال الحجم وترتيب الاجسام . وقد نشأت بين القرن الرابع والقرن السادس للميلاد في الشام هندسة متينة راقية مختلفة عن الهندسات الاخرى تعرف حالتها من خرائب المدن العديدة في سورية العليا وحوران . قال جلايرت : ومن المصانع المنوعة في الهندسة السورية شبابيك يلفتان النظر خاصة وهما البيع والابنية ذات السطوح وكان المهندسون السوريون فيها عالة على الشرق ويسترشدون بآراء مهندسي فارس وقد أثرت الهندسة السورية اذ ذاك في هندسة كثير من الامم ولا سيما في بيزنطية واخذت بيزنطية من سورية او من طريق مصر عن سورية اصول كثير من الابنية . وقال ايضاً والحق يقال

ان في سورية الوسطى مجالاً واسعاً للابحاث العلمية ودرس العاديات فان فيها ما لا يحصى من الابنية العادية كالبيوت والكنائس المسيحية ودور الخاصة والاندية العمومية من اواخر القرن الاول قبل المسيح والقرن السابع للميلاد ولا كثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها وهذه الآثار تتوالى سنة بعد سنة حتى لو جعلت على سباق متواصل لما وجدت عشرة اعشار من السنين خالية من أثر او آثار جمة ومجمل رأي بوتلر احد اعضاء البعثة الاميركية التي بحثت في آثار سورية الوسطى بين عامي ١٨٩٩ — ١٩٠٠ بعد معاينة كل هذه الآثار المتعددة واتخاذ اقيستها وتدوين رسومها انه كان لاهالي شمالي سورية الوسطى هندسة قائمة بذاتها مباينة لفن البناء الذي اشاعه الرومان في سورية وهو بناء قد يدعى بالطرز السوري لا اثر فيه للطرائق البنائية الرومانية والشرقية المحضة لكن له علاقة ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في انطاكية وهذه العلاقة أبين وأظهر في اول استعمالها ثم امتزجت به على توالي الاجيال عناصر شرقية حتى نجم اخيراً عن اختلاطها طرز مركب شاع في القرون الاخيرة . واذا حولت رائد البصر الى الجنوب وامعنت النظر في ابنية حوران وجدت طرائقها البنائية مختلفة اختلافاً عظيماً عن الهندسة الشمالية نعم ان فن البناء الروماني ليس يتغلب على ابنية تلك الانحاء الا ان آثار نفوذ الفنون البنائية الشرقية اوفر واعظم وبذلك قد تألف طرز وطني سبق عهد دخول حوران في اقليم سورية مع مباينة للطرز اليوناني الذي ادخله السلوقيون .

* * *

عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فاميه وتدمر وبعلبك ولدّ و باب جيرون قال والروم تقول : ما من بناء بالحجارة ابهى من كنيسة الرُّها (اورفة) ولا من بناء بالخشب ابهى من كنيسة منبج لانها بطاقات من خشب العناب ولا بناء بالرخام ابهى من قسيان انطاكية ولا بناء بطاقات الحجارة ابهى من كنيسة حمص . وبيعة القسيان في انطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على اساطين وكان بدور الهيكل اروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثني عشرة ساعة وفي

اعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات و بساتين ومناظر حسنة تخرّ منها المياه وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع . وكنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي احدى عجائب العالم . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطرابلها اي صوامعها وكان في الشام ادياد كثيرة ذكر بعضها ياقوت منها دير باعنتل من جوسية على مرحلة من حمص وفيه عجائب منها أزَج — بيت بني طولاً — فيه صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وهيكل مفروش بالمرمر وصورة مريم في حائط منتصبة كلما ملت الى ناحية كانت يممتها اليك . وبظاهر انطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد وكان له من الارتفاع في كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة . وكان دير مران المطل على دمشق من جهة حدائق الصبار مبنياً بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملوّن وهو دير كبير في هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني وفي الجبل المشرف على كفرطاب قرب معرة النعمان دير آخر اسمه دير مران وبقرب المعرة دير النقيرة . ودير مار مارون شرقي حماة وشيزر كان ذا بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة كان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم .

قال ابن بطريق : ان كنائس الغوطة ودير مران كان الملوك ينزلونها و يسكنون فيها . وفي الشام ادياد وبيع كثيرة لم يحدث التاريخ عنها الا اجمالاً . ومن اهم الكنائس كنيسة القيامة بالقدس و كنيسة بيت لحم ومنها كنائس الناصرة وفي لبنان ادياد كثيرة قديمة واقدمها على الغالب لا يرتقي الى اكثر من مائتي سنة تراها كما قال لامنس اشبه ببيوت القرى لا تختلف عنها الا بسعتها وليس لها طرز هندسي وكان للبنان في القديم طريقة هندسية لبناء كنائسه الا انها دثرت والنقوش والتصاوير فيها كلها من الشكل البيزنطي . وقال ان الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة اخذت تسير في طرق مستقلة عن النموذجات اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع الفنية وانشأ المهندس السوري يرفض استعمال الملاط بين الاحجار و يكتفي بحسن وضعها على صورة متوازنة تقوى بها بدون لحمة بين اجزائها واستعاض عن الآجر المألوف على عهد الرومان واليونان

بالحجر المحبت وبنى الكنائس ذات قباب فكثرت في البلاد البيع البديعة التي يعجب بجمالها العظيم اليوم الاثريون وعنها اخذ بناة الكنائس الرومانية ·

ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير في القرن السادس ان لها عند الروم في دمشق شأناً عظيماً وليس بعد بيت المقدس عندهم افضل منها وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير امراً عجيباً تُبهت الافكار وتستوقف الابصار ومرآها عجيب · وليس في دمشق الآن كنيسة اقدم من ستين سنة لانها حرقت كلها في حادثة سنة ١٨٦٠ م وكذلك لا ترى في حلب كنيسة يرد عهد بنائها الى اكثر من خمس وسبعين وفي الشام ادبار كثيرة وبيع مثل ادبار جبل الكرمل والطور واريحا وطبرية ودير الروم والروس وكنيسة الالمان في القدس ودير صيدنايا ومعلولا في جبل قلمون وكلها حديثة الا قليلاً ليست ذات شأن معمر وكذلك الحال في ادبار شمالي الشام وسواحلها ·

* * *

كان العرب قبل الاسلام يختلفون الى بلاد الشام ينزلونها ويتجرون مع اهلها ويقتنون المزارع والقرى فيها بل كان النبط وهم عرب هم الذين انشأوا آثار جرش والبتراء والغسانيون واليهم تنسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان ابن المنذر في السويداء وسيف حارب · وبنى جفنة اول ملوكها جلق والقريتة وعدة مصانع وبنى ابنه عمرو دير حالي ودير ايوب ودير الدهناء وبنى ثعلبة بن عمرو عقة وصرح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء وبنى جبلة بن الحارث من ملوكهم القناطر والدرج والقسطل وبنى الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء — الحفير في البلقاء ومصنعه بين دجمان وقصر ابير · وبنى المنذر بن الحرث صربا ورزقا قريباً من الغدير وبنى جبلة بن الحرث قصر حارب وكان منزله بحارب ومحاربا زمنبعة وبنى الايهم بن الحارث الادبار دير صخم ودير النبوة وسعف وبنى عمرو بن الحارث قصر الغضا وصفاة العجلات وقصر منار وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب عين اباغ واصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة وكان بعض ملوك لخم خربها وكان الضجاعم قبل الغسانيين ملوك الشام وهم عرب ايضاً · وحكم النبوخيون شمالي

سورية قبل ان يجيئها جيوش العرب بقرون ولم تعرف للضجاعم والنبوخيين آثاراً تذكر · وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني سميذع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك · قال البكري: ان اهل ثلاث بيوتات من العرب كانوا يتبارون في البيع وزيها: آل المنذر بالحيرة وغسان بالشام وبنو الحارث بن كعب بنجران ويعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه وكانوا يجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب · وقد نسب دوسو عدة ابنية في سيف البادية الى الغسانيين · كتب ايليا بطريرك بيت المقدس الى انسطاس ملك الروم قد بعثت اليك بجماعة عبيدالله ورؤساء رهبان بريتنا وفيهم سابا الفاضل الذي قد صير بريتنا مدائن واعمرها وهو نجم فلسطين · وفي سنة احدى وعشرين من ملك يوستنيانوس الملك ثار بفلسطين اهل السامرة وهدموا الكنائس كلها واحرقوها وقتلوا النصارى وعذبوهم عذاباً شديداً فاغاث يوستنيانوس الكنائس وكتب الى عامله في فلسطين ان يعفي اهلها من الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات و بنى بيمارستاناً للغرباء في القدس

قال هوار: « ان القوافل عند عودتها الى الحجاز من سورية وقد سرحت الطرف في المصانع العظيمة على العهد الامبراطوري كانت تقص احاديث عجيبة مما رأت فأثيرت النفوس تلك القصص وكان منها ان انشؤا في صحاري شمال بلاد اليمن جنات النعيم وارم ذات العماد الغريبة وقد بنيت في غالب الظن على مثال دمشق وتدمر و بعلبك » · على انه من الثابت انه كان لحمير سكان اليمن الخضراء هندسة معمارية قبل العهد الامبراطوري فان قصر غمدان في صنعاء من اعجب القصور انشأه ازال ابن قحطان بامر اخيه يعرب عشرين طبقة بعشرين سقفاً بين كل سقف عشرون ذراعاً وجعل فيه مائة مسكن وكان اعلى غرفه ممرداً بالزجاج وقد بني على اربعة اوجه وجه احمر ووجه اصفر ووجه ابيض ووجه اخضر وقيل بني في داخله قصر على سبعة سقوف بين كل سقفين منها اربعون ذراعاً وجعل في اعلاه مجلس بالرخام الملون وجعل سقفه رخامة واحدة وصير على كل ركن من اركانه تمثال اسد من شبه كأعظم ما يكون · فالامة التي تبني هذا كانت لها ولا جرم عناية بالغة بالبناء وبراعة في

تقدیرها وهندستها وسواء اخذت العرب عن سورية الهندسة واخذ السوريون عن عرب الحيرة واليمن فان المهم ان يعرف ان العرب ليسوا كلهم بادية بل كان منهم من يشيد المدن امثال اليمانيين والى اليوم ظاهرة آثارهم البديعة على الانحطاط الذي طرأ على ذلك القطر العجيب بعادياته وخيراته .

جاء العرب المسلمون الى الشام ولم يكن لهم هندسة خاصة واختاروا باديء بدء ان يسكن جيوشهم في الخيام وكان جمهور من الروم في دمشق تخلوا عن دورهم ولحقوا بهرقل فنزلها الفاتحون ثم اخذوا في كل بلد ينزلونه يرممون ماعور من بنائه وربما بنوا بالمدر اي باللبن والطين اولاً ولكن عادوا الى استعمال الحجر فقد روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه ان سعداً واصحابه بنوا بالمدر كتب : اكره لكم البنيان بالمدر فاما اذا فعلتم فعرضوا الحيطان واطيلوا السمك وقاربوا بين الخشب وقد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا دمشق دور وقصور منتشرة في انحاء المدينة مثل دار ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وابي العزيز الازدي ورابصة بن معبد وطلحة بن عمرو وخالد بن اسيد والنعمان بن بشير الانصاري وواثلة بن اسقع وهبار بن الاسود وعمرو بن العاص واوس بن اوس ويزيد بن نبيشة وعبد الله بن عامر الى امثالهم ولا نعرف الا مكان دار ابي عبيدة وكان في محلة حجر النعب اي المحلة التي تعرف اليوم بالبيمارستان وكانت اجمل حيّ في دمشق وقد اقام بعضهم مساجد في جوارهم . وكان معاوية يقيم احياناً في غوطة دمشق وينصب الابنية والاروقة والفساطيط قال اليعقوبي كان معاوية اول من بنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم يسخر احد قبله . ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء لقبة خضراء بناها عليها عرفت الدار بها وذلك قبلي الجامع الاموي دخلها وفد الروم فقالوا: ما احسن ما بناها للعصافير وفي رواية اما اعلاه فللعصافير واما اسفله فللنار فهدمها وبناها بالحجر . والغالب انها ظلت عامرة الى القرن الثالث بدليل ما قاله ابن واضح من ان في دمشق خضراء معاوية وهي دار الامارة . ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة بدمشق فاشتراها باربعين الف دينار واشترى منه اربع ضياع باربعة اجناد الشام اختارهن فاختار من فلسطين

عمواس ومن الاردن قصر خالد ومن دمشق الاندر ومن حمص دير ركا .

وقد بنى الامويون بعده بيوتاً لهم كانت بجوار الجامع ومنها دار عمر بن عبد العزيز مكان المدرسة السميساطية الآن ودار هشام مكان تربة نور الدين وقصر سليمان بن عبد الملك مكان سقاية جيرون ودار مسلمة بن هشام بباب البريد قال الذهبي بنى سليمان ابن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز وكان لعاتكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق وقال ابن عساكر كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن عبد الملك بن مروان وقد بنى الامويون قصوراً لهم في الغوطة لانهم كانوا يملكون جانباً عظيماً منها ولكن لم يظهر لها اثر ولا خبر .

وفي ايام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تتكلم في البنايات والعمائر لزيادة رغبته في البناء فبنت الناس المجالس الحسان وذلك لان الخليفة كان يرغب في البنايات واتقان المصانع وفي عهده دخلت دمشق في طور العواصم والناس على دين ملوكهم .

قال احد المؤرخين وكان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء عمر الضياع ووضع النار في الطرقات واعطى المجزّمين وافردهم وقال لا تسألوا واخدم كل مقعد خادماً واعطى كل ضرير قائداً وكتب الى جميع البلاد بهدم المساجد والزيادة فيها وتسهيل الطرق وحفر الانهار وان تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من اجرى على القراء وقوام المساجد الارزاق .

كان الامويون اذا ارادوا اقامة بناء عظيم تقدم مملكة بيزنطية الصناع والرسوم التي يراد النقل عنها . ذكروا ان الوليد لما اراد في القرن الاول ان يعمر جامعي بيت المقدس ودمشق استقدم رومًا من القسطنطينية للقيام بهذا الغرض فبدأت الهندسة العربية بالاقتباس عن الامم الاخرى فلم تأت بابداع جوهري في مباديء البناء وقد استخدم العرب باديء بدء من المهندسين وارباب الصنائع من وجدوهم في البلاد التي افتتحوها فكان أسلوب البناء الاسلامي في اول الامر سورياً في الشام وقبطياً في مصر .

قال سنيوبوس لم يكن العرب كالرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا اذا احتاجوا الى قصور او جوامع يعمرونها اولاً على الطرز الفارسي او البيزنطي مثل جامع دمشق ولكن ما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منهما صناعة جديدة في الصناعة العربية واجمل هذه الصناعات الجوامع والقصور . وقال احد علماء الافرنج ان التقليد في الحضارة الاسلامية محسوس بيد انه تقليد غير اعمى لان تأثيرات الاساتذة الاقدمين لا تمنع من البحث العلمي والاختراع الحديث كما ان مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحولان دون التفنن ولطافة الابداع والاختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق احدى مراكزها ومنبعث انوارها ولم يخلف العرب في النقش ولا الرسم آثاراً خارقة للعادة وما بقي مع هذا من آثارهم وعادياتهم الحجرية وانواطهم المنقوشة وعاجهم ومجوهراتهم يشهد بامتعدادهم الفني اه .

وقال هوار : كان بذخ ملوك المسلمين من الدواعي للصناع ان يرقوا الاساليب التي كانوا يأخذونها تقليداً عن اجدادهم شفاهاً فجددوها وتفننوا فيها فارتقت مع عدة اشكال قديمة بعضها من اصل بيزنطي وهي وارثة اليونان ورومية والآخر ساساني من احلاف الدولة الاخمانية او اشوري او بابلي فارتقت عدة فروع من الصنائع الاسلامية وهي ليست من اصل بيزنطي ولا فارسي .

ولقد تفنن العرب في التزيين الجميل في كل اجزاء البناء . وحسن الصناعة عند العرب يبدو في جوامعهم . فان ما يتجلى على الجدران والسقوف من ضروب الزخرف والخطوط المتلوية قد دعا الافرنج الى تسميته بلسم ارابسك اي النقوش التي تمثل النباتات والاشجار ونسبوها للعرب حتى ان حروف الكتابات التي زبرت على الاحجار والعاديات تشبه صورة من صور الزينة اكثر مما تدل على اصل من اصول الخط . ولم يكتفوا بتصوير الاشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك في الجامع الاموي بل صوروا البلدان والاقاليم .

* * *

ومن اهم الآثار التي لنا عن ذوق عربي في هذه الديار المسجد الاقصى وقد جرى ترميمه في اوقات مختلفة والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصويرهم

يدل على ما كان هناك من فكرة وقادة ويد صناع . وقد غشّى الوليد قبة الاقصى بالنحاس اخذه من كنيسة في بعلبك وكذلك فعل مروان في قبة الصخرة مدة ولايته وكان صناع هذه القبة من الروم . فهندسة الجامع الاموي والمسجد الاقصى مقتبسة اذاً من الهندسة اليونانية ومزوجة باشياء اسلامية .

بعث ملك الروم الى الوليد كثيراً من البنائين والمقدرين اي المهندسين مع ما بعث اليه من الفصص اي الفسيفساء والذهب قال المقدسي : ان الوليد جمع لبنائه حذاق فارس والهند والمغرب والروم . وروى ابن شداد : ان الوليد اقتلع من كنيسة انطاكية عمداً عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى ساحلها . ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ ان نقول انه جمع اجمل ما في الهند وفارس وآثينة ورومية . اما طرز البناء فالغالب ان بعض الجدر بقيت بحالها كما كانت يوم كونها بيعةً او معبداً للصابئة . ومساجد الشام ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ ايساهيوس انها ذات افنية واياوين وفساقي ومساكن للقسس .

ولقد بلغ من تفنن الوليد بزخرفة الجامع الاموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : ان ارض الجامع الاموي كانت مفصصة كلها وان الرخام كان في جدرانه الى قامات وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض وسقفه مقرنص بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة . وقد أنفق فيه خراج الشام سنتين وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وكان خراج الشام على عهد بني أمية الف الف دينار ومائتي الف دينار . وذكر بعضهم ان الوليد اخذ ربع أعطيات اهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفاً يستعين بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي والجامع جامع دمشق احسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع اكثر منه ومن اعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لافاد كل يوم صنعة . وقال المقدسي : رأى الوليد الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد

فتن زخارفها وانتشر ذكرها كالقامة وبعة لد والرّها فاتخذ للمسلمين مسجداً في دمشق شغلهم به عنهن وجعله احدى عجائب الدنيا ·

ومما رواه صاحب مطالع البدور ان اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق و يبنون فيها وفي معاملاتها من حوران وغيرها البنايات الغريبة العجيبة حتى كان بعد المسيح عليه السلام بمدة نحو من ثلثمائة سنة فتنصرت اهل الشام على يد قسطنطين بن قسطنطين الذي بنى المدينة المشهورة في بلاد الروم و بنى لهم هذا الملك التي تنسب اليه الطائفة الملكية منهم كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال انه بنى في زمانه اثنتي عشرة الف كنيسة · وقد غلب حب البناء على بني امية فكان منزل سليمان بن عبد الملك قبل الخلافة الرملة وهو انشأ مسجد جامعها ونقل الناس اليها من لدّ وكانت المدينة التي ينزلها الناس فاخذ يهدم منازلهم بلدّ والبنيان بالرملة وعاقب من امتنع من ذلك وهدم منازلهم وقطع الميرة عنهم حتى انتقلوا وخرب لدّ ·

دخل المأمون مرة جامع دمشق ومعه اخوه المعتصم ويحيى بن اكثم فازداد اعجباً فقال المأمون لهما : اي شيء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم : ذهبه فانا نضعه في قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول وهذا بحاله مع طول الزمن كأن الصانع فرغ منه الآن · فقال المأمون : ما أعجبني هذا · فقال يحيى بن اكثم الذي اعجب امير المؤمنين تأليف زخارفه فان فيه عقوداً ما يرى مثلها · فقال المأمون : كلا بل اعجبني انه بني على غير مثال شوهد ·

ومع ان تلك الاثارات الجميلة في الجامع ذهبت في الحريق الاول سنة ٤٦١ هـ ثم الحرائق الخمس التي حدثت في اوقات مختلفة وآخرها سنة ١٣١٠ هـ فقد بقي في الغالب سوره الاول · وصف ابن جبير قبة الرصاص في الجامع الاموي فقال انها من اعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغريبة وهيا كلها الهائلة البنيان وقال انها مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالاً عجيباً وهي كلها مذهبة بابدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين

بديعة القرنصة وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطير مقنطرة لا تنقلها الفيلة فضلاً عن غيرها فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة اه ·

اما المسجد الاقصى في القدس فقد كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على انه احسن من جامع دمشق عمّر عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على اسلوب جميل لم يسبق اليه · قال بعضهم ان شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يستنيانس وبنى موضعها المسجد الاقصى وتنوق في تنميقه واكمل البناء سنة ٧٢ وقالوا ان اساس المسجد الاقصى من عمل داود وهو على غاية الحسن والاحكام كما قال ياقوت مبني على الاعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا احسن منه لا جامع دمشق ولا غيره · وروى ابن العديم ان جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء وان سليمان بن عبدالملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله اخوه الوليد في جامع دمشق ·

* * *

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال : دخلتها فاذا هي دار مجصصة حيطانها وسقوفها وفيها وصفاء ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب ثم أُدخلتُ داراً أخرى فاذا حيطانها وسقوفها خضر واذا وصفاؤها ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد وان ولي العهد قاعد على سرير معه امرأته · ووصف حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال انها دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب حمر من اناز وقد تضمخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في اواني ذهب يقلبه بين يديه فتفوح رائحته وفي المجلس جاريتان لم ير مثلها قط · والله اعلم أكان ذلك حقيقة ام خيالاً ·

وقد ادعت ميس بل انه لولا حوادث القرن السابع اي لولا دخول العرب

الفاتحين لبلاد السوريون طريقة في هندسة الابنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم وان امتزج بها شيء من هندسة الامم الاخرى فرد عليها لامنس بان هذه المدينة مدينة دمشق لم تكن عاصمة كبرى الا في عهد بني أمية وبعمتهم . قلنا ولو لم يُعفَ بنو العباس آثار بني أمية في الشام لرأينا فيه احسن صورة تامة من صور بنائهم . وكان منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية او ما يقرب منها لان الامويين كانوا على الاغلب يخالفون نزول دمشق لرطوبتها وحياتها فمنهم من نزل قصر الموقر او المقور وقصر المشتى والزيزاء والفدين والازرق والاغدف والبخراء والابيض والقسطل والرصافة والزيتونة والجابية وحوّارين والصنبرة ودابق وبطنان حبيب وأيايز في البلقاء وشمالي سورية وشرقها وبنى هشام حصن المنقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن بوقا من اعمال انطاكية وبعض هذه القصور لاتزال أسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسفها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا مثلاً سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً واخربوا ايضاً قصور الامويين في حلب مثل قصر سليمان بن عبد الملك بالحاضر وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير و قصري هشام في الرصافة وابقوا في الغالب على قصر خناصرة من ارض الاحص لعمر بن عبد العزيز لانهم احترموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أمية . والظاهر من كلام المقدسي المعروف بالبناء الذي ولد سنة ٣٣٦ ان آثار بني أمية كانت موجودة في عهده خلافاً لما هو المعروف من ان العباسيين اتوا عليها كلها والغالب ان بعض الابنية لم تعود كثيراً ورممت فاطلق عليها اسمها الاصلي ونسبت الى بانيها الاول .

قال الجاحظ : من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم وان يميتوا ذكر اعدائهم فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية وعلى ذلك هم في الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام (الحصون) التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم اصحابنا (يعني العباسيين) بناء مدن الشاميات (قد تسمى الشام بالشاميات) اما بنو العباس فلم تبق الايام من آثارهم مصنعاً يعتدّ به في الشام لتحكم على عظمتهم

وكان من اهمها قناة قرية منين التي جرها المأمون الى معسكره بدير مران في جبل قاسيون . وهذا عمل مهم مما بلغنا خبره لان الطريق من منين الى قاسيون يحتوي على اودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر . وقد بنى للمتوكل العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على اثر وفي سنة ٢٦٢ هـ بنى الامير النعمان داراً عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها اما المتغلبة على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلجوقيين فاننا لانعرف عن آثارهم كبير امر ايضاً ولاسيما بنو طولون وبنو عبيد فانهم آثروا ان يجعلوا مصانعهم في معسكر مقر ملكهم كما آثر العباسيون ان يجعلوها في العراق وخراسان ومما بناه ختكين والي دمشق للحاكم بامر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى وسخر الناس لاجل عمله واخذ اموالهم .

ومن اجمل ابنية دمشق دير مران كان عامراً الى القرن الثالث وكان فيه قصر خمارويه وفيه قتل وللشعراء فيه قصائد جميلة . ذكر ابن عساكر ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومنابر وقنوات واجرى الفوارة التي في جيرون . وذكر انه وجد في تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة وهو الذي انشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤ وكان لشمس الدين بن المقدم من كبار امراء الدولتين النوريه والصلاحية (٥٨٤) دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمية ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقراسنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان وكان الملك الامجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلها دار المشيرية اليوم .

وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في سورية حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب انتهت الينا تراجم بعضهم وقليل من اعمالهم مثل ابي بكر البناء المهندس الذي ابتنى ميناء عكا لابن طولون . قال المقدسي ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على ميناها فاحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صناع الكورة وعرض عليهم

ذلك فقيل لايبتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء وقيل ان كان عند احد علم هذا فعنده فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى انهضه اليه فلما صار اليه وذكر له ذلك قال هذا امر هين علي" بفلق الجميز الغليظة فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البري وخيط بعضها ببعض وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ثم بنى عليها بالحجارة والشيد وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشتد البناء وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك وكلما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به ثم جعل على الباب قنطرة فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة مثل صور اه . قلنا و بنى احمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل .

ومن المهندسين الذين رأينا اسماءهم مكتوبة على المصانع التي عمروها ابراهيم ابن غنائم المهندس الذي بنى القصر الابلق في الميدان القبلي بدمشق وهو قصر عظيم مبني من اسفله الى اعلاه بالحجر الاسود والاصفر بتأليف غريب واحكام عجيب بناه الظاهر بيبرس البندقداري وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الابلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وامام هذا القصر اي ابلق دمشق دركاه[1] يدخل منها الى دهليز القصر وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن المؤزر بالرخام المفصل بالصدف والفص المذهب الى سجف السقف وبالدار الكبرى به ايوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيهما على الميدان الاخضر وغربيهما على شاطىء واد اخضر يجري فيه نهر وله رفارف عالية تباغي السحب تشرف من جهاتها الاربع على جميع المدينة والغوطة . قال شيخ الربوة

(١) الدركاه البيت المستطيل امام الدار يرتفق به وهو فارسي اخذه العرب من الفرس كما اخذوا لفظ الهندام بمعنى الحد عن اندازه ومنه المهندس المقدر بمجاري الدفي والابنية واخذوا البركار ايضاً كما اخذوا الشاذروان للفوارة تشتق منها فوارات كثيرة والايوان والدهليز والبازار والدركاه والبيمارستان والخانقاه وكثيراً غيرها ومن ذلك يستدل على كثرة تأثير الاوضاع والهندسة الفارسية في الاوضاع والهندسة العربية .

سمي بالقصر الابلق لكونه مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً الى عهد العثمانيين رآه ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال ان على أسكفته ضرباً من رخام ابيض وسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون ان التكية السليمانية قامت على انقاض ذاك القصر . وابراهيم بن غنائم هذا هو الذي هندس ايضاً المدرسة الظاهرية بدمشق ونقش اسمه على يسار الداخل من الباب في الزاوية الشمالية هكذا « عمل ابراهيم بن غنائم المهندس » . ولا تزال اسماء بعض المهندسين ظاهرة في بعض آثار طرابلس على عهد المماليك منهم المعلم محمد بن ابراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي . ومن بلغناخبره علم الدين قيطر المعروف بتعاسيف المهندس بنى للملك المظفر في حماة ابراجاً وطاحوناً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعاونه في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل .

وصف بهاء الدين الموصلي قصر الابلق بدمشق فقال : وقصرها الابلق ليس بالعقوق من شاهد بديع معانيه سها عن العاشق والمعشوق قد شام في غمده مشهور غمدان، واسبل على ايوان كسرى ستر النسيان، يبهر الناظر حسن معناه، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه ، الماء مرفوع في اقطاره ونواحيه ، فتصب في فوار بركه لتهيز ناظريه ، يتكسر جمعه على شاذروانانه مجروراً باضافته الى مجاريه ، فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ، ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر ، اعين شبابيكه الى ميدانه الاخضر ناظرة، قد جمع الصادح والباغم واللافظ والطاعم به الظباء الاوانس ، والمها الكوانس ، اقطاره عريضة طويلة لاترجع الابصار من السفر في دمنه الا كليلة، اخجلت خمائله الأيك والغصون، ولاذ القائف بالسلوان عن اقتفاء اثر السلوك في معانيه التي كلها عيون، وقف الابلق حين جرى الى منتهاه، وادركه الاعياء فسكن باقصاه، وشاهد الشعراء تمرح في ميدان واديها فاراد الوصول اليه فعاوده الاضطراب، فقطعت عليه الانهار الطريق وضرب بينهما بسور له باب .

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس وحماة وطرابلس والمعرة وبعلبك وغيرها واخذوا ينشئون فيها المدارس

والجوامع والرُبُط والمستشفيات والقلاع والجسور كان منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء هذه المدرسة العادلية التي شرع ببنائها نور الدين ولم يتمها ولما ولي العادل ازال ما بناه نور الدين وبناها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس . ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القيمري في صالحية دمشق وهندسة مدرسة الصهيبية في حلب وكذلك المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال ومن اظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً امامها فيمد الساكن فيها يده ويجتليه متكئاً دون كلفة ولا مشقة . وقد قيل ان منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية .

ولقد بنى الملك الاشرف بن الملك العادل بدمشق قصوراً ومنازهات حسنة وكانت عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من احسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف انواعه كما قال ابن الاثير فخرب المسلمون كثيراً منها ونقلوا رخامها الى دمشق وغيرها وخربوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجليلة المقدار ولما تسلمها تقي الدين عمر حصن قلعتها وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة .

* * *

وبعد ان كانت دمشق في القرن السادس اكثر مدن الارض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي اجمل مدينة في العالم بل اغنى مدينة احرق تيمورلنك بعض احيائها ومدارسها وغرَّمها ملايين من الدنانير وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين في جملة من حمل من ارباب الصنائع الى سمرقند كما فعل السلطان سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر فحمل الى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام افردها ابن عبد الهادي في رسالة

كما كان في عصره الف جامع ومسجد في دمشق وضاحيتها وناهيك ببلدة فيها هذا القدر من آثار العمران ولا غرو بعد هذا ان قال فينا ابو الفضل بن منقذ الكناني يوم كان لنا القدح المعلى في العمائر :

واذا مررت على المنازل معرضاً ... عنها قضى لك حسنها ان تقبلا
ان كنت لا تستطيع ان تتمثل الفر ... دوس فانظرها تكن متمثلا
واذا عنان اللحظ اطلقه الفتى ... لم يلق الا جنة او جدولا
او روضة او غيضة او قبة ... او بركة او ربوة او هيكلا
او واديا او ناديا او ملعبا ... او مذنبا او مجدلا او موئلا
او شارعا يزهو بربع قد غدا ... فيه الرخام مجزعا ومفصلا

ومن قصور حلب في القرن الثالث دار واليها زكا الاعور ودار حاجبه فيروز ودار سيما الطويل ودار كورة الخراساني ومنها قصر السلطنة بدمشق . قال ابن الجوزي : هدم اهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيماً يسع الوفا من الناس . وقصر بطناس في حلب كان عامراً الى عهد ابن العديم في القرن السادس . وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمارة في فتنة القرامطة سنة ٣٦٣ وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو احسن مكان كان بظاهر دمشق . وقال ابن شاكر : ان اللؤلؤتين كانتا منظرتين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكانتا من أعجب البناء . احرقهما المصريون لما حاصروا دمشق . وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل ليس في الاسلام قنطرة احسن منها ويقال انها من العجائب وسنجة بالقرب من منبج . وقال ابن القلانسي من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ومضاء همته ومستحسن ابتدائه ما احدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الاوسط منها وباب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لما انشئ ذلك في سنة ٥٢٧ مع دار المسرة بالقلعة والحمام المحدثة على قضية اخترعها وبنية اقترحها وصفة آثرها فجاءت في نهاية الحسن والطيبة والتقويم والاعتدال .

من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الاتابكية والايوبية مثل حماة

فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر وكان الصيت لحمص دونها فلما آلت الى ملك بني ايوب مصروها بالابنية العظيمة والقصور الفائقة والمساكن الفاخرة وفي جوامعها اثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على انقاض الكاتدرائية القديمة ومنها ما حرق وخرب واستعيض عنه مكاناً آخر مثل طرابلس ففي سنة ٦٨٨ فتحت طرابلس واخرب سورها وكان من الاسوار العظيمة وامر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس وكانت في يد الفرنج من سنة ٥٠٣ ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري في القرن التاسع للهجرة : ان فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة مايورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع اذرع وفي مواضع عشر اذرع . وقال ابن فضل الله في بعلبك : انها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستان والاسواق الحسنة . وقال آخر وقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الايوبية آثار ملوكية جليلة . وكانت منج ذات مدارس وربط عليها سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً . ومن هذه المدن ما اصبح الآن كالقرى مثل قيسارية التي قال فيها المقدسي ليس على بحر الروم بلد اجل ولا اكثر خيرات منها ومثل المعرة معرة النعمان التي ترى الى اليوم مسافة ما بين ابوابها ساعة على السائر .

وقد انشأ جامع طرابلس الاشرف خليل ٦٨٩ — ٦٩٣ على عهد حكومة عز الدين ايبك الخزندار وازهرت طرابلس على عهد سيف الدين اسندمر الذي بنى القلعة وحماماً وسوقاً وانشأ فيها مجاري المياه الغربية في تقسيمها الى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها من الحمى في الطبقات الارضية وقد عمر فيها هذا الملك سنة ٧٠٩ حماماً عظيماً اجمع من رأوه انه ما عمر مثله في البلدان وعمر قيسارية وطاحوناً وانشأ لمالكه بها مساكن حسنة البناء تجري المياه اليها بالقنوات ومنها ما يطلع الى اعلاها وتجري في طباقها وعمر ايضاً بعض القلعة وأقام ابراجاً وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس — قاله النويري .

* * *

في بر الشام كثير من القلاع من بناء القرن الخامس والسادس والذي بعده مثل قلعة صرخد . قال ابن تغري بردي : في حوادث سنة ٤٦٦ وفيها بنى حسان ابن مسمار الكلبي قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الامير الاجل مقدم العرب عز الدين فخر الدولة عدة امير المؤمنين يعني المستنصر صاحب مصر وذكر عليها اسمه ونسبه ومثل قلعة حلب وان كان تاريخها يرد الى ابعد من هذا القرن والمهم من ابنيتها بدأ في عهد الاسلام .

وكذلك قلعة دمشق التي سميت « الاسد الرابض » وهي من بناء تاج الدولة تتش سنة ٤٧١ هـ جعل بها دار امارة وسكنها ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم . وكانت دار الامارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد ان ذكوا الخضراء وقصور الأمويين خرب القصر في بعض فتن الفاطميين .

وفي سنة ٦٩١ كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء في قلعة دمشق فجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع وانشئ فيها قاعة اسمها قاعة الذهب وفرغ من جميع ذلك في سبعة اشهر وجاء في غاية الحسن . وصف ابن حجة الحموي قلعة دمشق عندما حوصرت في الوقعة المشهورة : ونظرت بعد ذلك الى القلعة المحروسة وقد تامت قيامة حربها حتى قلنا أزفت الآزفة وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون : (ليس لها من دون الله كاشفة) واستجليت عروس الطارمة عند زفتها وقد تجوزت للحرب ولم ترض بغير الارواح مهراً وقد عقدت على رأسها تلك العصائب وقد توشحت بتلك الطوارق وادارت على معصمها الابيض سوار النور وغازلت بحواجب قسيها ورمت القلوب من عيون مراميها بالنبال واهدت الى العيون من مكاحل نارها الكحلا كانت السهام لها اميال وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية ورأوا كشفها وهم في رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بان الطارمة عالية وتالله لقد حرست بقوم لم يتورعوا بغير آية الحرس في الاسحار وقد استيقظوا لحمل قسيهم ولم تنم اعينهم عن الاوتار فاعيذ رواسيها التي كالجبال الشامخة بمن اسس المحجوج واحصنها قلعة بالسماء ذات البروج .

واشتهرت في القرن الخامس دار ابن بني عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أسامة ابن منقذ فرآها وقد تهدمت وتغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الابيات :

احذر من الدنيا ولا تغتر بالعمر القصير
وانظر الى آثار من صرعته منا بالغرور
عمروا وشادوا ما ترا ه من المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سكناها الى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي ان أسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقاض بيوت الناس خربت على يد ايوب بن الكامل محمد في سنة ٦٤٧ وكان أسامة قد غرّم عليها اموالاً عظيمة واخذ اراضي الناس والآلات بدون الطفيف وصح فيه قول القائل الحجر المغصوب في البناء اساس الخراب وكانت هذه الدار سبب هلاك أسامة .

ومن جملة قصور الحكومة في الدولة الجركسية دار السعادة وكانت مكان دائرة المشيرية امس ودار حكومة دمشق اليوم . ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على مثال قلعة دمشق . وفي اقدم من الاسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في ادوار مختلفة دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف تيرون وهونين وتبنين و كوكب وعجلون وقاقون والصبيبة والصلت والهارونية و بيت لاها وحصن ابي قبيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهيون وبغراس ودربساك ودركوش واسفونا و بسرفوت و بلاطنُس وحصن الاكراد وشيزر والشيطرة والشغر و بكاس وارسوف و بيت جبرين وحبرون وارتاح والاثارب و بارين وبارة والعزاز وصرفند وعدلون و برج الرصاص وحصن الاسكندرونة والتينات وحلبا وعرقة ويزبه وخناصرة وقسطون وتل اعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات والكهف والعليقة والخوابي وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة اي الدعوة الباطنية او الاسماعيلية . هذا الى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة وحمص وعكا والكرك والشوبك وصرخد وصفد وشميميس . ومعظمها تناطح السحاب بعلوها وتشبه الجبال بمتانتها وما احلى ما قاله القاضي الفاضل في وصف حصن كوكب :

وورد نا حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة ، لها العمامة عمامة ،

وانملة ، اذا اخضبها الاصيل كان الهلال لها قلامة . ووصف شهاب الدين محمود حصناً فقال : حصن قد تفرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ورسا اصله الى النجوم ، تتمال الشمس اذا علت انها تتنقل في ابراجه ، و يظن من سما الى البها انها ذبالة في سراجه ، لا يعلوه من نسر السما غير نسر السما وزمامه ، ولا يرمق متبرجات بروجه غير عين الشمس والمقل التي تطرف من انجمه ، وحوله كل شامخ تهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الريح حسرى اذا تعرقلت في هضابه ، تخفق العيون اذا رمقته سلوك مادونه من المحاجر ، و يحيل الفكر صورة الترقي اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الاودية خنادق لا تعلم منها الشهور الا بانصيافها ، ولا تعرف فيها الاهلة الا باوصافها .

وبدأ منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون لان المدينة او الموقع الحربي اذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين ان يجتاحها ومن كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الاحزان : « وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر اذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع اذرع الى ما فوقها وما دونها وعدتها تزيد على عشرين الف حجر لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بنيانه الا باربعة دتانير فما فوقها وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها انوف الجبال الشم وقد جعلت سقيته بالكلس واحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه وصاحبه باوثق واصلب من جرمه واوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدمه »

وكثيراً ما كان سلاطين هذه الديار منذ استولى عليها الاتابك زنكي الى اواخر عهد المماليك يخربون الحصون التي استولوا عليها او التي كانوا بنوها لئلا يعود اعداؤهم فيستولوا عليها و يتقدموا في داخلية البلاد . وقد ألف جمهور الناس ان ينقضوا البنيان القديم و يعمروا به بناءهم الحديث ولهذا امثلة كثيرة في تاريخ العمران في هذه البلاد خاصة . فقد ذكر العماد الكاتب ان اللاذقية لما استخلصت من ايدي الصليبيين وقع من عدة من الامراء الزحام على الرخام ونقلوا منه احمالاً الى منازلهم بالشام « فشوهوا وجوه الاماكن ومحوا سنا المحاسن » و بظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة باجزاء الاجزاع مرصعة و بالوان الرخام مجزعة واجناس تصاويرها متنوعة ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها وشوهوا اعلامها .

وذكروا ان سياي كاقل الشام في الدولة الجركسية لما اراد بناء جامعه في باب الجابية بدمشق خرب عدة جوامع ومدارس واتى باحجارها فسمى العلماء ما بناه « جمع الجوامع » ولما ارادوا في اواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر بردى من صدر الباز الى داخل مدينة دمشق حملوا اليه من ضخام الاحجار التي كانت في قلعتها. وربما هدم بمثل هذا العامل ما كان في اكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز وهو اول من اتخذ من الخلفاء الخانات للمسافرين كما اتخذ دار ضيافة وانشأ معاوية قبله البريد . وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق ووقف عليه قرية داريا ليصطاف الفقراء الى جانب الاغنياء ودار العدل التي بناها نور الدين ايضاً في دمشق وهي اول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلامات وسماها دار العدل كان يجلس فيها لفصل الخصومات مرتين في الاسبوع وعنده القاضي والفقهاء وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع (على الليطاني) كما جدد كثيراً من الجسور والخانات وقنوات السبل في اعمال دمشق وغيرها . وما كان في قمم الجبال من المنار التي كانت توقد فيها النيران للاعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد في البلاد من ابراج حمام الزاجل لنقل الاخبار في النهار . ومن ذلك دمنة القبتين المثلثتين في قنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد فلكي بناه المأمون فدثر في جملة ما دثر . ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه للصوائف ويقال بل كان له رسم قديم .

* * *

دخلت سورية في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية وغيرها وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس ولا سيما في طرابلس و بيروت وعكا واهتم الصليبيون ببناء القلاع والكنائس في البلاد التي احتلوها من ارض الشام ولا سيما طرابلس وصور وانطاكية وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : اذا استثنينا الدور الرومانية فانه لم يأت على الشام زمن توفرت الهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين فان كل مستعمرة تجارية في الموانئ البحرية كانت تحاول ان يكون لها على الاقل كنيسة وخانات وحمامات ومن ذلك العهد يرد تاريخ الكنائس الكثيرة وبعضها عظيم

من القلاع التي غصت بها البلاد وهي احسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى . وانشاء الكنائس في الشام يرد الى عهد قسطنطين سنة ٣٣٠ م فكثرت بكثرة عنايته ورفعه من شأن الكنيسة وقال فان برشم ان على طرابلس صبغة المدن الايطالية اثرت فيها منذ الحروب الصليبية كما اثرت هندسة المدن الايطالية الكبرى على جميع الموانئ البحرية في سورية وكان للطراز الايطالي التقدم على غيره لان الطليان اهل البندقية و بيزة وجنوة وطسقانا كانوا اسبق امم الغرب الى الاختلاط بسكان الشام للقرب وللعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية وكان عدد الصليبيين من جمهوريات ايطاليا اكثر من غيرهم من الامم قال الاثري فان برشم : لما كانت سواحل سورية محط رحال الصليبيين ونقطة حركاتهم الحربية تشبعت ابنيتها بالروح الايطالي خصوصاً لان الطليان كانوا اذ ذاك اكثر عدداً في هذه الحملات من العنصر الفرنساوي . ومن هذه المدن ماوثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ومنها ماهو باق مثل انطاكية و بيروت واللاذقية وعكا . وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتجلى الروح الايطالي الباقي من القرون الوسطى في ابنيتها وهندستها ولا تزال قلعة الحصن او حصن الاكراد والكرك كما يدعوها فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ناطقة بلسان حالها بان الصليبيين نزلوا الارض المقدسة .

قلنا فاذا كان الطليان يبيعون هندستهم في البناء ونقشهم ورسمهم من الامم الغربية حتى اليوم فاحرِ بهم ان يبيعوها من اهل القرون الوسطى هنا . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وارواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة انفة هذا الى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصناً في البلاد التي احتلوها .

قال رنان الظاهر ان البنايات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكليين . وان البنايات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسويين وفرسان الاسبتاليين وكثيراً ما كان تأثير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم — وكانت

البلاد عامة بها — تعدل ذوق الافرنج الخاص في هذا المعنى . قال وفي طرطوس قامت اهم هذه الآثار واستدل مما فيها ان منزل الصليبيين في هذه البلاد لم يكن منزل قلعة بل وطدوا انفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً وان في طرطوس بيعة في اجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار .

وتجلت الهندسة الايطالية في الابنية الحديثة التي أنشئت منذ ستين سنة في بيروت ولبنان وطرابلس وحيفا ويافا وصيدا وغيرها من مدن الساحل فان معظمها من الطراز الايطالي لا تحوي شيئاً من روح الهندسة العربية الا كونها تامت في صميم بلاد العرب . لا جرم ان علاقة سورية بايطاليا اقدم من الاسلام . علاقتها ببلادنا منذ كنا ولاية رومانية تحكمنا رومية عاصمة تلك الامة العظيمة .

* * *

برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الابنية وهي ما يتعرف منه احوال اوضاع الابنية وكيفية شق الانهار وتقنية القنيّ وسدّ البثوق وتنضيد المساكن ولم يبرعوا في كيفية ايجاد الآلات الثقيلة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي بهرنا اليوم مع علمنا بقلة الآلات المحركة في عهدهم وفقدان وسائط النقن . ولو كان مؤلفو التراجم يعنون باخبار المهندسين والفلكيين والكيماويين مثلاً عنايتهم بالتقاط اخبار الشعراء والمتأدبين والمتزهدين لجاءتنا منهم سلسلة طويلة ولعلمنا من اسباب تفننهم وعلومهم الشيء الكثير وما ندري ان كانت هذه الموضوعات افردت بالتأليف فضاعت في جملة ما ضاع في الفتن في بغداد ودمشق وغرناطة .

لم يبلغنا ان في البلاد دوراً يرد تاريخها الى الف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن في عهد ارتقاء البلاد على عهد الحكومات العربية كما بقيت مثلاً بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة كما كانت بنوافذها وابوابها الحجرية . ولكننا على مثل اليقين من ان طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بعصور وان هذا الطراز في بناء بيوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الاخيرة

ومنه مثال حي من مدارس المذاهب الاربعة ودور القرآن والحديث والمستشفيات والرُبُط وغيرها في دمشق . وعن هذا المثال نقل الأمويون أسلوبهم في بناء البيوت بقرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس اقتبسوا أسلوب بناء الدور من دمشق على ما يظهر كأن لا تكون الدار اكثر من طابقين احدهما شتوي وهو الاعلى والآخر صيفي وهو الادنى وللدار مدخل او دهليز يتصل بفناء واسع فيه حوض ماء وفي صحن الدار اشجار وازهار وفوارات . قال احد المهندسين المعاصرين ان التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ويكتفى بطيقان للتهوية ولها فناء داخلي تحف به غرف ومخادع وفي وسط الفناء او الصحن فوارة او حوض ماء . لا جرم ان المسلمين قد اخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ولا تزال نجد فيه مثالاً في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » او الفناء المبلط .

وكانت دمشق تعتمد في ابنيتها على الحجر غالباً . وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الادوار الاخيرة . قال المقدسي : ان منازل دمشق ضيقة وازقتها غامة واكثر اسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فواراتها . هذا في القرن الرابع للهجرة . وقال ابن جبير في القرن السادس ان اكثر ابنيتها بالقصب والطين . وقال ابن فضل الله في الثامن ان غالب بناء دمشق بالحجر ودورها اصغر مقادير من دور مصر لكنها اكثر زخرفة منها وان كان الرخام بها اقلّ وانما هو احسن انواعاً قال وعناية اهل دمشق بالمباني كثيرة ولهم في بساتينهم منها ما تفوق به وتحسن باوضاعه وان كانت حلب اجلّ بناء لعنايتهم بالحجر فدمشق ازين واكثر رونقاً لتحكم الماء على مدينتها وتسليطه على جميع نواحيها ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلاً من خشب النخل الا انه لا يغشى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره واشرف دورها ما قرب واجل حاضرتها ما هو في جانبها اهـ .

قلنا وهذا ينافي ما كان يراه العرب في تخير اماكن بيوتهم فقد كانوا اصطلحوا على ان الاطراف منازل الاشراف قال البحتري :

عجب الناس لاعتزالي وفي الاطـ ـراف تلقى منازل الاشراف

ولذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية والربوة والشرف الاعلى الشمالي والشرف الادنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصوراً انيقة يزلها القضاة والحكام وكبار ارباب الاملاك والاشراف ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الايام حتى تحكم على ما عمله الدمشقيون وأسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الاسلامي الاوسط وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين . ويقول كاتب جلبي : انه كان في المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ايفاؤها حقها من الوصف لا سيما ابنية البرامكة وآثارهم فانها لم تزل باقية الى هذا العهد (القرن الحادي عشر) وروى الظاهري : ان دمشق تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة على المدينة بها تخت الملك مغطى لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه وقال ايضاً : ان ما في الميدان الاخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا في القرن العاشر .

وآثار العثمانيين في هذه العاصمة التكيتان السليمانية والسليمية والجامعان السنانية والدرويشية . بنوها على الاسلوب التركي البيزنطي ولهم مثل ذلك في حلب ومنها المدرستان البديعتان مدرسة الحسروية والمدرسة العثمانية . قال سوبرنهيم الالزيسي ان عدداً عظيماً من مصانع حلب يرد الى زمن المماليك والعثمانيين وما عدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الاطروش والطون بغا والطواشي ومناراتها المختلفة الهندسة — وبفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ و بكثير من المخازن والخانات والحمامات والدور والسبيلات . وفي هذا المستشفى افاريز ونقوش من اجمل ما نقش النقاشون تزينه فتجعله بهجة للناظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها العسكري والديني والمدني وكلها يجاز عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان يتصور اصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي سورية اهـ . ومن اجمل آثار الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنتها خيفة خاتون التي ملكت حلب ست سنين وهي ابنة ابي بكر بن ايوب الملك العادل ولو كتب البقاء على الاقل للقصر

الذي بناه بقرية بطياس من ضواحي حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد الملك بن صالح خارج باب انطاكية وقصر مرتضى الدولة احد موالي بني حمدان وقصر سيف الدولة بن حمدان الذي بناه بالحلة من ضواحي حلب وتناهى في حسنه وعمل له اسواراً وقد احرقه الروم في احدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك . او قصر آخر من قصور الحمدانيين — لو كتبت الاقدار ذلك لساغ لنا ان نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء في القديم . والغالب ان هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم . ويقول الظاهري ان الميدان الاخضر في دمشق كان فيه من القصور الحسنة ما هو عجيبة من العجائب . وفي سنة ٦٩٢ كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين ارقطاي المنصور الناصري كافل السلطنة ايام الملك المنصور بن قلاوون وكان بناؤه بعدما خرب الجسر الذي اقامه السلطان انطونيوس الحليم الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة واربعين سنة وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشى في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبال الجسر القديم مما يلي قبليه على هذه الصورة مكتوب: الامير ادوار قيصر مارقوس اوريليوس انطونيوس الحليم السعيد اغسطس كبير الجرمانيين الجبار الاعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا ونهج الطريق مهلاً ولقبه بالطريق الانطونياني وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعدما اصلحه انطونيوس الملك نصب به قائمة (نصباً) من حجر كبير على صورة الكلب وقيده بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه نقيراً لاجل الطعام .

لما اراد نائب الشام في اواخر النصف الاول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت بعد ان لم يبق في السواحل مثل هذا النهر بغير جسر وكان عُمِّر مرة فاقام سنتين فاخذه السيل ثم عُمِّر ولم يقم الا بعض الشتاء لضعف الاساس انتدبوا لذلك مهندساً خبيراً بالاعمال الاثرية يقال له ابو بكر بن البصيص البعلبكي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الاعمال الثقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة . وكذلك جسر الظاهر برقوق الذي بناه على نهر الأردن اي الشريعة وطوله مائة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون . وقالت فيه

السيدة عائشه الباعونية الدمشقية :

بنى سلطاننا برقوق جسراً بامر والانام له مطيعه
مجاز في الحقيقة للبرايا وامر بالمرور على الشريعه

وعمر قاضي دمشق سنة ٩٣٢ سوقاً تجاه باب جيرون بدمشق فبنى اقواساً يجعلون فيها قباب مبنية بالآجر اذ رآه احكم في البناء لانه لا يحتاج الى طين ويؤمن من حرقه .

* * *

من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه الى القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر ومنها نعرف كيف كانت هندسة القوم فمنها القاعة المشهورة بباب جيرون وباب السلسلة انشأها الامير محمد بن منجك الذي عمر العمارات الفائقة بدمشق فانه تأنق في عمارتها بالقاشان والرخام وعمر القصر المعروف به في الوادي الاخضر (١٠١١) ومنها عمارات الامير منصور بن الفريخ امير البقاع المقتول سنة ١٠٠٢ بقرية قب الياس وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال المحبي لم يرسم مثلها جعل بابها بالرخام الابيض والحجر الاحمر المعدني ونقل لها الرخام من بلاد السواحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسخرة . وفي سنة ١٠٣٤ بنى الامير منذر بن الامير سليمان بن علم الدين بن محمد التنوخي سرايا عظيمة في قرية عبيه في النحار من الغرب في لبنان وبقي مدة اربعين سنة ولم يكملها لزيادة اتساعها وكان البناؤون من اسلامبول . وامر الوزير احمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة ١٠٧١ بعمارة قاعة معظمة داخل دار الامارة بدمشق فبنيت كما قال المحبي على اسلوب عجيب ووضع غريب . وقال المؤرخون ان الامير بشير الشهابي كان كالامير فخر الدين المعني يحب البذخ والرفاهية وتنظيم اصطبلاته وبيطرته حتى اصبح مضرب الامثال في ذلك وعمر في بيت الدين قصراً ملوكياً وجاب اليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ . قال بعض المؤرخين جر الامير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب نهر الصفا الى منزله في بيت الدين من بعد ثلاث سنوات وغرم على ذلك زهاء مائتي الف درهم وكانت جميع اهل البلاد تحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة

بغير اجرة اكراماً له ومدة العمل اثنتان وعشرون شهراً وعمر الامير بشير بايعاز من والي عيدا جسراً على نهر الدامور في طريق صيدا الى بيروت فجمع اهل الصناعة اليه فكانوا اكثر من مائة وخمسين رجلاً فاتمه في شهرين وغرم عليه نحو مائة الف درهم ومن الابنية التي اشتهرت في عصرها قاعة حسين بن قرنق في صالحية دمشق عمرت سنة ١٠٧٧ وكان يضرب بها المثل وهي على الارجح في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي . ومن محاسن دمشق في هذا القرن الداران اللتان عمرهما في القنوات الامير المنصور الشهابي امير وادي التيم وابن عمه الامير علي وذلك على اسلوب متقن محكم وزخرفاهما بانواع الزخارف والنقوش وجلبا اليهما الرخام من بلادهما قال المحبي : ولعمري انهما ابدعا ونوعا واجادا في صنعهما .

وذكر المؤرخون ان الامير فخر الدين المعني جلب مهندسين من الغرب ولعلهم من ايطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا وذكروا ايضاً انه بنى عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا واتى بنو سيفا صحاب طرابلس فاحرقوا ونهبوا الشوف قيل انه اقسم هكذا : وحق زمزم والنبي المختار لاعمرك يادير بحجر عكار . وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها جعل الجمال بالالوف تحمل الحجارة من قلعة عكار الى دير القمر وبنى جميع الدور القديمة في دير القمر ووزع في جدرانها من حجارة عكار وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الحرج وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية الى الآن . ومن امثلة البناء الجميل دار اسعد باشا العظم في جوار جامع بني أمية بدمشق شرع بانشائها سنة ١١٦٣ وانتهت سنة ١١٧٤ قيل ان ما انفق عليها اربعمائة كيس كل كيس بخمسمائة قرش وهذا اجور العملة واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من املاكه وبساتينه عدا من سخرهم للبناء من الناس وكان عدد العملة ثمانمائة قيل ان داخل الدار اماكن عديدة لاتشبه الواحدة الاخرى وجميعها بماء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم ونقل بعض السائحين ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم . وهذه الدار بما حوت من القناة والقاعات والردهات والابهاء والفساقي والفوارات والحمام من الطف ما هندس المهندسون في

ذاك القرن وكذلك يقال في قصره في حماه وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة . والنقوش وانواع الزينة فيها فارسية فاستدل من ذلك ان النقاشين كانوا فرساً او تأثروا بالاسلوب الفارسي ومن اجمل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها انها كانت عامرة اكثر من اليوم . ودار اسعدباشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورممتها وجعلتها متحفاً وداره في حماه اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة ايضاً . ومن اجمل الآثار في دمشق ايضاً خان اسعدباشا العظم وواجهته ورتاجه «بوابته» وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس الى الرأس وعرضه ومن اجمل آثار ذاك القرن جامع الجزار في عكا وداره في البجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذاك القرن . وسراي بيت الدين انشئت في اوائل القرن التاسع عشر ومهندسوها ايطاليون والبناؤون دمشقيون وحلبيون واتراك من الاستانة وهي على الطرز التركي الممتزج بالطرز الايطالي . ومن البيوت الجميلة قصور بني جنبلاط في المختارة في لبنان وفي الهلالية قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راشيا . فان هذه القصور مثال من تفنن اعيان ذاك الزمان في تجييد بيوتهم وحسن هندستها . وقد تبين مما سلف ان الهندسة في الشام امتزجت في القرون الاخيرة سورية عربية وانت اذا شاهدت ماشادوا ونضدوا ونقشوا ورصعوا رأيتهم يبنون كما قيل بناء الجبابرة و ينقشون نقش الصياغ .

وانا اذا تأملنا الابنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام نراها طرزاً ايطالياً في الاكثر قد لا ينطبق مع روح البلاد ومصطلحها في اشادة البيوت منذ القرون الاولى وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان اولاً ثم امتد الى طرابلس ويافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن وما دور بني مرسق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والتويني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعزيزية في حلب ومصايف لبنان في عاليه وصوفر وبكفيا وغيرهما وبعض الدور الحديثة في دمشق الامثال منها ومن اهم ابنية الشام الحديثة دير الكازانوفا في الناصرة ودير الالمان ودير الروس في القدس ومدرسة اليسوعيين والجامعة الاميركية ودار المفوضية العليا في بيروت ومحطة السكة الحجازية في دمشق ومحطة سكة بغداد في حلب وغير ذلك من القصور الخاصة

والفنادق والمدارس والملاجئ والمياتم والمستشفيات في القدس وطبرية و بيروت ولبنان وغيرها ومن اهم دور القرن الماضي في دمشق دار القونلي وشامية وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني و يسرع البلى الى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين او بعضها منهما على الاغلب واكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها تنبو عنه العين والزخرف في داخلها قال البحتري :

وتأملت ان تظل ركابي بين لبنان طلعاً والسنير
مشرفات على دمشق وقداعـ ـرض منها بياض تلك القصور

ومع ان المقالع قريبة من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من ابيض ومائل الى الصفرة او الحمرة فان القوم يستسهلون او يسترخصون البناء بالخشب واللبن او الحجر الاسود الناري فيبنون به كما يبني اهل حمص . واجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حلب ولم يزل بناء بيت المقدس — كما قال القاضي الفاضل — من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا ينطرد لألاؤه قد لطف الحديد في تجزيعه ، وتفنن في توسيعه ، الى ان صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى الامقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق ، كالاشجار لها من النبت اوراق . وان بعض القاعات اذا كتب لها البقاء فلانها بنيت بالحجر الصلب وتعاورتها ايدي العقلاء فرممتها يوم احتاجت الى الترميم بطاري ء طرأ عليها .

قلّت في الشام قصور افراد الناس من التجار والصناع والزراع كما تشاهد في الغرب مثلاً لان اهل البلاد كانوا يفنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير ارباب الدولة او من كان يعد في جملتهم وكان سائر الناس يحاذرون ان ننشأ لهم شهرة في الثروة والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس فيتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال الذين كانت مصادرة الاموال اسهل شيء عليهم وقتل من يريدون استصفاء ارضهم وعقارهم وعروضهم من المباحات . ولذلك كان ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يجيء بعد دهر طويل من ينبش الارض او الجدار و يعثر بالعرض على ما جمعه ذاك الغني المحروم . والناظر الى مدارس دمشق وصالحيتها وهي لا تقل عن زهاء ثلثمائة مدرسة

ومدارس حلب وهي تربو على مئة يدرك انها من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار واهل الخير وكان منهم من يتوخى منها ان تكون توليتها لبنيه من بعده ليعيشوا منها اذا صودرت املاكهم . وقل ان رأينا جماعة اتفقوا على اقامة عمل من هذا القبيل يفتخر به اللهم الا قليل من المساجد ولو فعلوا لامنت اعمال الجماعات من اعتداء المعتدين ولما استصفيت واستحل هدمها او تغيير معالمها من لايخافون الله ولا عباده وجادت ممثلة العظمة الحقيقية في الامة . انشأ المسلمون هذا القدر من المدارس في اكبر مدن القطر دع مدارس حماة وطرابلس وبعلبك والقدس والمعرة ومنبج بدأوا في القرن السادس وانتهوا في القرن التاسع فجاء من بعدهم من ينسفها واحدة تلو الاخرى فتداعت واكلوا اوقافها فاخرجوها عن الغاية الشريفة التي وضعت لها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

هكذا كان حظ المدارس والجوامع فما بالك في غيرها من المصانع . وكم ادركنا وادرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من اثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته وكم من كتابة تاريخية عفي اثرها جهلاً وغباوة . اجتاز القاضي ابو يعلى المعري ببلدة شيات ظاهر معرة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر فقال :

مررت برسم في شيات فراعني به زجل الاحجار تحت المعاول
تنابلها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
اتلفها شلت يمينك خلها لمعتبر او زائر او مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم ار احلى من حديث المنازل

وبعد فقد علمنا بما مرّ بنا من العبر ان الشام لايحفظ بآثاره وتحييها الا يوم تنشأ فيه ادارة للعاديات يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ امد فاحتفظت بالبقية الباقية من اعمال الغابرين وخدمت احياء الآثار وغلاة الهندسة من المحدثين . واهم من هذا ان يتربى في الامة الذوق في الجمال و ينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الاطفال و يعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الاجداد والاجيال وعندئذ يصح الشام كله متحفاً نفيساً دونه اجمل المتاحف واعم بيوت المفاخر والمآثر .

محمد كرد علي